**تابع التفسير بالرأي المحمود والرأي المذموم**

**2- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (للبيضاوى)**

**\* التعريف بمؤلف هذا التفسير:**

**مؤلف هذا التفسير، هو قاضى القضاة، ناصر الدين أبو الخير، عبد الله ابن عمر بن محمد بن علىّ، البيضاوي الشافعي، وهو من بلاد فارس، قال ابن قاضى شهبة فى طبقاته: "صاحب المصنفات، وعالم أذربيجان، وشيخ تلك الناحية. ولى قضاء شيراز". وقال السبكي: "كان إماماً مُبرَزاً نظَّاراً خَيِّراً، صالحاً متعبداً". توفي سنة 691هـ (إحدى وتسعين وستمائة).**

**\* التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:**

1. **تفسير العلامة البيضاوي، تفسير متوسط الحجم، جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل، على مقتضى قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السُّنَّة.**
2. **وقد اختصر البيضاوي تفسيره من الكشاف للزمخشري، ولكنه ترك ما فيه من اعتزالات، وكذلك استمد البيضاوي تفسيره من التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب للفخر الرازي، ومن تفسير الراغب الأصفهاني، وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، كما أنه أعمل فيه عقله، فضمنه نكتاً بارعة، ولطائف رائعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا فى أسلوب رائع موجز، وهو يهتم أحياناً بذكر الق راءت.**

**وإن كان أحياناً يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشاف:**

* **ومن ذلك أنه عندما فسَّر قوله تعالى فى الآية [275] من سورة البقرة: {الذين يَأْكُلُونَ الربا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطان مِنَ المس} ... .. الآية، وجدناه يقول: "إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيُصرَع".. ثم يفسِّر المس بالجنون ويقول: "وهذا أيضاً زعما منهم أنَّ الجنى يمس الرجل فيختلط عقله". ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشري من أن الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء.**
* **يذكر في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث، وهي موضوعة باتفاق أهل الحديث.**

1. **نجد البيضاوي كثيراً ما يقرر مذهب أهل السُّنَّة ومذهب المعتزلة، عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقطة من نقط النزاع بينهم. ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة البقرة أيضاً: {وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} نراه يتعرض للخلاف الذى بين أهل السُّنَّة والمعتزلة فيما يُطلق عليه اسم الرزق، ويذكر وجهة نظر كل فريق، مع ترجيحه لمذهب أهل السُّنَّة.**
2. **مُقِّلٌ جداً من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو يُصْدِّر الرواية بقوله: رُوِى، أو قِيل ... إشعاراً منه بضعفها.**
3. **يخوض في مباحث الكون والطبيعة، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من طريق التفسير الكبير للفخر الرازي، الذى استمد منه كما قلنا. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [10] من سورة الصافات: {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}**

**إن هذا الكتاب رُزِق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحولَ، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علَّق تعليقة على سورة منه، ومنهم مَن حشى تحشية تامة، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه".. ثم عَدَّ من هذه الحواشي ما يزيد عدده على الأربعين، ولا أطيل بذكرها، ومَن شاء الاطلاع على ذلك فليرجع إليه فى موضعه الذى أشرتْ إليه، وحسبي أن أقول: إن أشهر هذه الحواشي وأكثرها تداولاً ونفعاً: حاشية قاضى زاده، وحاشية الشهاب الخفاجي، وحاشية القونوى**

**التفسير بالرأي المذموم.. أو تفسير الفرقة المبتدعة**

**والذى اشتهر من هذه الفِرَق خمس: أهل السُّنَّة، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج، وما وراء ذلك من الفرق كالجبرية، والباطنية، والمشبهة، وغيرها، فمعظمها مشتق من هذه الفِرَق الخمس الرئيسية.**

**المعتزلة.. وموقفهم من تفسير القرآن الكريم:**

**\* كلمة إجمالية عن المعتزلة وأصولهم المذهبية - نشأة المعتزلة:**

**نشأت هذه الفِرْقة في العصر الأموى، ولكنها شغلت الفكر الإسلامي فى العصر العباسي ردحاً طويلاً من الزمان. وأصل هذه الفِرْقة هو واصل بن عطاء الملَّقب بالغزَّال المولود سنة 80 هـ (ثمانين) ، والمتوفى سنة 131 هـ (إحدى وثلاثين ومائة) ، في خلافة هشام بن عبد الملك، وذلك أنه دخل على الحسن البصرى رجل فقال: يا إمام الدين؛ ظهر في زماننا جماعة يُكَفِّرون صاحب الكبيرة - يريد وعيدية الخوارج - وجماعة أخرى يُرجِئون الكبائر، ويقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فكيف لنا أن نعتقد في ذلك؟ فتفكَّر الحسن، وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، ثم قام إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد، وأخذ يقرر على جماعة من أصحاب الحسن ما أجاب به، من أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ويثبت له المنزلة بين المنزلتين، قائلاً: إن المؤمن اسم مدح، والفاسق لا يستحق المدح فلا يكون مؤمناً، وليس بكافر أيضاً، لإقراره بالشهادتين، ولوجود سائر أعمال الخير فيه، فإذا مات بلا توبة خُلِّدَ في النار، إذ ليس في الآخرة إلا فريقان، فريق من الجنة، وفريق في السعير، لكن يُخَفَفُ عنه، وتكون دركته فوق دركات الكفار، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فلذلك سُمى هو وأصحابه معتزلة.**

**ويُلَقَّب المعتزلة بالقدرية تارة، وبالمُعَطِّلة تارة أخرى، أما تلقيبهم بالقدرية، فلأنهم يسندون أفعال العباد إلى قدرتهم، وينكرون القَدَر فيها. وأما تلقيبهم بالمُعَطِّلة فلأنهم يقولون بنفي صفات المعاني فيقولون: الله عالِم بذاته، قادِر بذاته.. وهكذا.**

**فأنت ترى مما تقدم، أن الاعتزال نشأ في البصرة، ولكن سرعان ما انتشر في العراق، واعتنقه من خلفاء بنى أمية يزيد بن الوليد، ومروان بن محمد، وفى العصر العباسي، استفحل أمر المعتزلة، واحتلت أفكارهم وعقائدهم من عقول الناس وجدل العلماء مكاناً عظيماً.**

**أصول المعتزلة:**

**أما أصول المعتزلة فهي خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وهذه الأصول الخمسة يجمع الكل عليها، ومَن لم يقل بها جميعاً فليس معتزلياً بالمعنى الصحيح. قال أبو الحسن الخياط أحد زعماء المعتزلة في القرن الثالث الهجري: "وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإذا كملت هذه الخصال فهو معتزلى".**

**أما التوحيد: فهو لُبِّ مذهبهم، ورأس نحلتهم، وقد بنوا على هذا الأصل: استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، وأن الصفات ليست شيئاً غير الذات، وأن القرآن مخلوق لله تعالى.**

**وأما العدل: فقد بنوا عليه: أن الله تعالى لم يشأ جميع الكائنات، ولا خلقها ولا هو قادر عليها، بل عندهم أن أفعال العباد لم يخلقها الله تعالى، لا خيرها ولا شرها، ولم يرد إلا ما أمر به شرعاً، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته.**

**وأما الوعد والوعيد: فمضمونه، أن الله يجازى مَن أحسن بالإحسان، ومَن أساء بالسوء، لا يغفر لمرتكب الكبيرة ما لم يتب، ولا يقبل في أهل الكبائر شفاعة، ولا يُخرج أحداً منهم من النار. وأوضح من هذا أنهم يقولون: إنه يجب على الله أن يُثيب المطيع ويُعاقب مرتكب الكبيرة، فصاحب الكبيرة إذا مات ولم يتب لا يجوز أن يعفو الله عنه، لأنه أوعد بالعقاب على الكبائر وأخبر به، فلو لم يعاقب لزم الخلف في وعيده. وهم يعنون بذلك أن الثواب على الطاعات، والعقاب على المعاصي قانون حتمي التزم الله به، كما قالوا: إن مرتكب الكبيرة مُخَلَّدٌ في النار ولو صَدَّق بوحدانية الله وآمن برسله، لقوله تعالى في الآية [81] من سورة البقرة: {بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيئته فأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ..**

**وأما المنزلة بين المنزلتين: فقد سبق أن بيَّناها في مناظرة واصل بن عطاء للحسن البصرى.**

**وأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهو مبدأ مقرر عندهم، وواجب على المسلمين لنشر الدعوة الإسلامية، وهداية الضالين وإرشاد الغاوين، ولكنهم بالغوا في هذا الأصل، وخالفوا ما عليه الجمهور، فقالوا: إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يكون بالقلب إن كفى، وباللسان إن لم يكف القلب، وباليد إن لم يغنيا، وبالسيف إن لم تكف اليد، لقوله تعالى في الآية [9] من سورة الحجرات: {وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفيء إلى أَمْرِ الله} .. وهم في ذلك لا يُفرِّقون بين صاحب السلطان وغيره، كما أنهم لم يُفرِّقوا بين الأصول الدينية المُجْمعُ عليها وعقائدهم الاعتزالية.**

**حكم ابن تيمية على تفسير المعتزلة:**

**كذلك حكم ابن تيمية على تفسيرهم فقال: "إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سَلَف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسَّروا به القرآن إما دليلاً على قولهم، أو جواباً على المعارض لهم، ومِن هؤلاء مَن يكون حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف، ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله، وقد رأيت من العلماء المفسِّرين وغيرهم مَن يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدى لذلك".**

**:::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::::**

**تفاسير المعتزلة:**

**ولم يصل إلينا من تفاسير المعتزلة إلا هذه المصنَّفات الثلاثة: تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار، وأمالي الشريف المرتضى، والكشاف للزمخشري.**

**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (للزمخشري)**

**\* التعريف بمؤلف هذا التفسير:**

**مؤلف هذا التفسير، هو أبو القاسم: محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، الإمام الحنفي المعتزلى، الملقب بجار الله، ولد في رجب سنة 467 هـ (سبع وستين وأربعمائة من الهجرة) بزمخشر - قرية من قرى خوارزم وقدم بغداد، ولقى الكبار وأخذ عنهم، دخل خراسان مراراً عديدة. وما دخل بلداً إلا واجتمع عليه أهلها وتتلمذوا له، وما ناظر أحداً إلا وسَلَّم له واعترف به. ولقد عظم صيته وطار ذكره حتى صار إمام عصره من غير مدافعة.**

**\* مقالة أبى حيان:**

**ونجد أبا حيان صاحب البحر المحيط عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [49] من**

**سورة النمل: {قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} .. يتعقب الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى: {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} .. ثم يصفه بقوله: "وهذا الرجل وإن كان أُوتِىَ من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ، ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان بكتاب الله، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشري، فذكرت أشياء من محاسنه، ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك مَن يقف على كتابي هذا، ويتنبه على ما تضمنه من القبائح، فقلت بعد ذكر ما مدحته به:**

**ولكنه فيه مجال لناقد ... وزلات سوء قد أخذن المخانقا**

**\*مقالة التاج السبكي:**

**وأخيراً.. فهذا هو العلاَّمة تاج الدين السبكي يقول في كتابه "معيد النِعَم ومبيد النِقَم": "واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنِّفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متاجر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسئ أدبه على أهل السُّنَّة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله، ولقد كان الشيخ الإمام - يعنى والده تقى الدين السبكي - يقرأه فإذا انتهى إلى كلامه في قوله تعالى في سورة التكوير الآية [19] : {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} أعرض عنه صفحاً، وكتب ورقة حسبة سماها "سبب الانكفاف، عن إقراء الكشاف" وقال فيها: قد رأيت كلامه على قوله تعالى: {عَفَا الله عَنكَ} ، وكلامه في سورة التحريم وغير ذلك من الأماكن التي أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى، سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعرضتُ عن إقراء كتابه حياءً من النبي صلى الله عليه وسلم، مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة".**

**\* اهتمام الزمخشري بالناحية البلاغية للقرآن: إنَّ كل مَن جاء بعده من المفسرين - حتى من أهل السُّنَّة - استفادوا من تفسيره فوائد كثيرة كانوا لا يلتفتون إليها لولاه، فأوردوا في تفسيرهم ما ساقه الزمخشري في كشَّافه من ضروب الاستعارات، والمجازات، والأشكال البلاغية الأخرى، واعتمدوا ما نبَّه عليه الزمخشري من نكات بلاغية، تكشف عما دَقَّ من براعة نظم القرآن وحسن أُسلوبه.**

**إنَّا نستعرض هذه الروح البلاغية التي تسود في تفسير الزمخشري فنشهدها واضحة من أول الأمر عندما تكلم عن قوله تعالى في الآية [2] من سورة البقرة: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} .. فبعد أن ذكر كل الاحتمالات التي تجوز في محل هذه الجملة من الإعراب، نَبَّهَ على أن الواجب على مُفَسِّر كلام الله تعالى أن يلتفت للمعاني ويحافظ عليها، ويجعل الألفاظ تبعاً لها، فقال ما نصه: ".. والذى هو أرسخ عرقاً في البلاغة أن يُضرب عن هذه الحال صفحاً وأن يقال: إن قوله: {آلم} جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها. {ذَلِكَ الكتاب} جملة ثانية و {لاَ رَيْبَ فِيهِ} ثالثة و {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك حسن لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها.. وهلم جرّاً إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك: أنه نَبَّه أولاً على أنه الكلام المُتَحدَّى به. ثم أشير إليه بأنه الكتاب المبعوث بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي وشداً من أعضاده، ثم نفى عنه أنه يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وقيل لبعض العلماء: فيم لذَّتك؟ فقال: في حُجَّة تتبختر اتضاحاً، وفى شبهة تتضاءل افتضاحاً. ثم أخبر عنه بأنه {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} ، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يُحَوَّم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتُبت هذا الترتيب الأنيق، ونُظِمَت هذا النظم السوى، من نكتة ذات جزالة، ففي الأولى: الحذف، والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه، وفى الثانية: ما في التعريف من الفخامة، وفى الثالثة: ما في تقديم الريب على الظرف. وفى الرابعة: الحذف، وضح المصدر الذى هو {هُدًى} موضع الوصف الذى هو {هَاد} ، وإيراده**

**منكراً، والإيجاز في ذكر {لِّلْمُتَّقِينَ} . زادنا الله اطلاعاً على أسرار كلامه، وتييناً لنكت تنزيله، وتوفيقاً للعمل بما فيه".**

**تذرعه بالمعانى اللغوية لنُصرة مذهبه الاعتزالي:**

**كذلك نرى الزمخشري - كغيره من المعتزلة - إذا مَرَّ بلفظ يشتبه عليه ظاهره ولا يتفق مع مذهبه، يُحاول بكل جهوده أن يُبطل هذا المعنى الظاهر، وأن يُثبت للفظ معنى آخر موجوداً فى اللغة.**

**فمثلاً يراه عندما تَعَرَّضَ لتفسير قوله تعالى في الآيتين [22، 23] من سورة القيامة: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ \* إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} .. يتخلص من المعنى الظاهر لكلمة "ناظرة"، لأنه لا يتفق مع مذهبه الذى لا يقول برؤية الله تعالى، ونراه يثبت له معنى آخر هو التوقع والرجاء، ويستشهد على ذلك بالشعر العربي فيقول ما نصه: {إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} : تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله: {إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر} [القيامة: 12] .. {إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المساق} [القيامة: 30] .. {إِلَى الله تَصِيرُ الأمور} [الشورى: 53] .. {إلى الله المصير} [آل عمران: 28، النور: 42، فاطر: 18] .. {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: 245] .. {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [الشورى: 1] كيف دَلَّ فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد، وفى محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإن المؤمنين نظَّارة ذلك اليوم، لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص. والذى يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى، تريد معنى التوقع والرجاء، ومنه قول القائل:**

**وإذا نظرتُ إليك من ملك ... والبحر دونك زدتنى نعماً**

**وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر، حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم، تقول: عُيينتى نويظرة إلى الله وإليكم" والمعنى: أنهم لا يتوقون النعمة والكرامة إلا من ربهم، كما كانوا فى الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه".**

**فمثلاً عندما يعرض الزمخشري لقوله تعالى في الآية [21] من سورة الحشر: {لَوْ أَنزَلْنَا هاذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} .. نراه يقول: "هذا تمثيل وتخييل كما مَرَّ في قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة} وقد دلَّ عليه قوله: {وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ} .. والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقِلَّة تخشعه، عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره".**

**ولكن هذا قد أغضب ابن المنير على الزمخشري فقال معقباً عليه: "وهذا مما تقدَّم**

**إنكاري عليه فيه، أفلا كان يتأدب بأدب الآية، حيث سمَّى الله هذا مَثَلاً، ولم يقل: تلك الخيالات نضربها للناس؟. ألهمنا الله حُسْن الأدب معه. والله الموفق".**

**وفى سورة الأعراف عند قوله تعالى فى الآيتين [172، 173] : {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بنيءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هاذا غَافِلِينَ \* أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون} يقول ما نصه: وقوله: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ} من باب التمثيل ومعنى ذلك: أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركَّبها فيهم، وجعلها مميزة بين أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك. وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفى كلام العرب، ونظيره قوله تعالى {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: 40] ، {فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ} [فصلت: 11] .. وقوله:**

**إذا قالت الأنساع للبطن الحق ... قالت له ريح الصبا قرقار**

**ومعلوم أنه لا قول، وإنما هو تميل وتصوير للمعنى".**

**ولكن ابن المنير السُّنىِّ لم يرض هذا من الزمخشري بطبيعة الحال، ولذا تعقبه بقوله: "إطلاق التمثيل أحسن، وقد ورد الشرع به، وأما إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى فمردود ولم يرد به سمع. وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة، ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف المعقول يجب إقراره على ما هو عليه، فكذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته ولم يجعلوه مثالاً. وأما كيفية الإخراج والمخاطبة فالله أعلم بذلك".**

**ومسألة التمثيل والتخيل يستعملها الزمخشري بحرية أوسع فيما ورد من الأحاديث التي يبدو ظاهرها مستغرباً، وأسوق إليك مثالاً أتى به الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى في الآية [36] من سورة آل عمران: {وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشيطان الرجيم} .. قال رحمه الله: "وما يروون من الحديث: "ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها" فالله أعلم بصحته، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها، فإنهما كانا معصومَيْن، وكذلك كل منَ كان في صفتهما، كقوله تعالى: { ... لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين} [ص: 82-83] .. واستهلاله صارخاً من مسه، تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممن أغويه. ونحوه من التخييل قول ابن الرومى:**

**لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد**

**وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا، ولو سُلِّطَ إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلونا به من نخسه".**

**وبالضرورة لم يرتض ابن المنير هذا الصنيع من خصمه المعتزلى، فنراه يتورَّك عليه بقوله: "أما الحديث فمذكور في الصحاح متفَق على صحته، فلا محيص له إذن عن تعطيل كلامه عليه السلام بتعميله ما لا يحتمله، جنوحاً إلى اعتزال منتزع، في فلسفة منتزعة، في إلحاد. ظلمات بعضها فوق بعض،. وقد قدمت عند قوله تعالى: {لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطان مِنَ المس} [البقرة: 275] ما فيه الكفاية. وما أرى الشيطان إلا طعن في خواصر القدرية حتى بقرها، وذكر في قلوبهم حتى حمل الزمخشري وأمثاله أن يقول في كتاب الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام بما يتخيل، كما قال في هذا الحديث. ثم تنظيره بتخييل ابن الرومي في شعره جرأة وسوء أدب. ولو كان معنى ما قاله صحيحاً لكانت هذه العبارة واجباً أن تُجتنب. ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بُعْدٍ أن يكون تمثيلاً، أما وهو واقع مُشاهدَ فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الضئيل، وارتكاب الهوى الوبيل".**

**مبدأ الزمخشري فى التفسير عندما يصادم النص القرآني مذهبه:**

**والمبدأ الذى يسير عليه الزمخشري في تفسيره ويعتمد عليه عندما تصادمه آية تخالف مذهبه وعقيدته، هو حمل الآيات المتشابهة على الآيات المحكمة، وهذا المبدأ قد وجده الزمخشري في قوله تعالى في الآية [7] من سورة آل عمران: {هُوَ الذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} .. فـ "المحكمات" هي التي أحكمت عباراتها، بأن حُفظت من الاحتمال والاشتباه. و "المتشابهات" هي المتشبهات المحتملات. و "أم الكتاب" هي أصله الذى يُحمل عليه المتشابه، ويُرَد إليه، ويُفسَّر به.**

**علىَ هذا التفسير جرى الزمخشري في كشَّافه عندما تَعرَّض لهذه الآية، وهو تفسير لا غبار عليه، كما أن هذا المبدأ - أعنى مبدأ حمل الآيات المتشابهات على الآيات المحكمات - مبدأ سليم يقول به غير الزمخشري أيضاً من علماء أهل السُّنَّة، ولكن الذى لا نُسَلِّمه للزمخشري هو تطبيقه لهذا المبدأ على الآيات التي تصادمه، فإذا مَرَّ بآية تُعارِض مذهبه، وآية أخرى في موضوعها تشهد له بظاهرها، نراه يَدَّعى الاشتباه في الأولى والإحكام في الثانية، ثم يحمل الأولى على الثانية وبهذا يُرضى هواه المذهبي، وعقيدته الاعتزالية.**

**وقد مَثَّل الزمخشري لحملِ المتشابه على المحكم ورده إليه بقوله تعالى في الآية [103] من سورة الأنعام: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار} . وقوله في الآيتين [22، 23] من سورة القيامة: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ \* إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} .. فهو يرى أن الآية الأولى محكمة، والآية الثانية متشابهة، وعليه فتجب أن تكون الآية الثانية متفقة مع الآية الأولى، ولا سبيل إلى ذلك إلا بحملها عليها، وردها إليها.**

**وفى سورة الأنعام عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية [158] : {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ في إِيمَانِهَا خَيْراً} .. نجد الزمخشري يمسك بهذه الآية، ويستدل بها على صحة عقيدته في أن الكافر والعاصي سواء في الخلود في النار فيقول: "والمعنى أن أشراط الساعة إذا جاءت - وهى آيات ملجئه مضطرة - ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدَّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدِّمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيراً، فلم يُفَرِّق - كما ترى - بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيراً، ليعلم أن قوله: {الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات} جمع**

**بين قرينتين لا ينبغى أن تنفك إحداهما عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد، وإلا فالشقوة والهلاك".**

**\* انتصار لمعتقد المعتزلة في السحر:**

**ثم إن الزمخشري - كغيره من المعتزلة - لا يقول بالسحر ولا يعتقد في السَحَرة، ولهذا نجده عندما يفسِّر سورة الفلق التي تشهد لأهل السُّنَّة ولا تشهد له، لا تخونه مهارته، ولا تعوزه الحيلة التي يخرج بها في تفسيره من هذه الورطة الصريحة، كما نجده يشدِّد النكير ويغرق في الاستهزاء والسخرية بأهل السُّنَّة القائلين بحقيقة السحر، وذلك حيث يقول: "النفَّاثات: النساء أو النفوس، أو الجماعات السواحر، اللاتي يعقدن عُقَداً في الخيوط، وينفثن عليها ويرقين. والنفث: النفخ من ريق. ولا تأثير لذلك، اللَّهم إلا إذا كان ثَمَّ إطعام شئ ضار، أو سقيه، أو إشمامه، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه، ولكن الله عَزَّ وجَلَّ، قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذى يتميز به الثبت على الحق، من الحشوية والجهلة من العوام، فينسبه الحشو والرعاع إليهن وإلى نفثهن، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبأون به. فإن قلت: فما معنى الاستعاذة من شرِّهن؟ قلت: فيها ثلاثة أوجه:**

**أحدها: أن يُستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر ومن إثمهن في ذلك.**

**والثاني: أن يُستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن.**

**والثالث: أن يُستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن.**

**ويجوز أن يُراد بهن النساء الكيَّادات من قوله: {إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} [يوسف: 28] تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العُقَد، أو اللاتي يفتنَّ الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن، كأنهن يسحرنهم بذلك".**

**وفى الحق أن هذه محاولة عقلية عنيفة من الزمخشري يريد من ورائها أن يحوِّل الحقائق التي ورد بوقوعها الكتاب والسُّنَّة. إلى ما يتناسب مع هواه وعقيدته. ولقد دهش ابن المنير من هذه المحاولة وحكم على الزمخشري بأنه: "استفزَّه الهوى حتى أنكر ما عُرِف، وما به إلا أن يتبع اعتزاله، ويغطى بكفه وجه الغزالة".**

**::::::::::::::::::::::::::::::**